AL-AZVĀ الاضواء
ISSN 2415-0444 ;E 1995-7904
Volume 51, Issue, 34, 2019
Published by Sheikh Zayed Islamic Centre,
University of the Punjab, Lahore, 54590 Pakistan

الأديب والفنّان والمجتمع في النّظام الفكري لدى العلّامة محمد إقبال

Writer, Artist and Society in the intellectual scheme of Allāma Muhammad Iqbāl

إنعام الحق غازي*

Abstract:
Allāma Muhammad Iqbāl (1877-1938) is considered one of the most prominent and affective poet-thinkers who promoted creativity among the modern Muslims. Iqbal was distinct for his intellectual courage, confidence and innovative approaches. He received Islamic and Oriental education in his childhood followed by the modern western education which contributed tremendously in the making of Iqbal. His intellectual and philosophical genius deliberated on all the important aspects of human life including art, literature and their role in the society. His prose and poetic writings in Persian, English and Urdu rarely ignore this very important aspect of human existence on the Planet. A quick glance at his writings in this regard reveals the richness and fertility of his mind pertaining to beauty, art, creativity, conflict between the artist and nature etc. This article sets out to survey the ideas and thoughts of Allāma Iqbāl about art, literature and their pivotal role in the making/development of, or otherwise, human society.
Key Words: Allāma Muhammad Iqbāl, Intellectual Scheme, Writer, Artist

1- المقدّمة:

نظراً إلى طبيعة الموضوع، رأينا أن نضع بين القارئ مقدّمة تعرّف بحياة العلّامة محمد إقبال وما أنتجه قلمه الفلسفي الشعري الفكري من أفكار أي عرض قائمة مؤلّفاته باللغات الثلاث وهي الفارسية والأردية والإنجليزية.

1-1نبذة حياة العلّامة محمّد إقبال :

وُلد الدكتور العلّامة محمد إقبال في الثالث من ذي القعدة 1294ه الموافق 9 نوفمبر 1877م بمدينة سيالكوت[1]، وتعلّم اللّغة الفارسية (اللغة العلمية والثقافية في شبه القارة آنذاك) والعربية إلى جانب اللغة الأردية من مولانا مير حسن (1844م-1929م) الّذي غرس فيه الشغف لدراسة الأدبين الفارسي والعربي والّذي هو الآخر كان من أتباع السير سيد أحمد خان (1817م – 1898م)[2]. فبعد إكماله الماجستير في الفلسفة، سافر العلّامة إقبال إلى أوربا بإشارة من أستاذه

*رئيس قسم الترجمة والترجمة الفورية، كلية اللغة العربية الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد، باكستان.

توماس واكر آرنولد (1864م-1930م) الّذي علّمه السّير في المناطق الوعرة من العالمين الفكري والفلسفي؛ فحصل إقبال على درجة الدكتوراه من جامعة ميونيخ بألمانيا بعنوان

"تطور فلسفة ما وارء الطبيعة في إيران" وذلك في عام 1907م. وقد مكث العلّامة محمد إقبال في أوربا لغرض الدراسة لمدّة ثلاث سنوات والنصف تقريبا ، ومكّنه هذا المكث من إدراك منهج البحث العلمي الحديث والإلمام بالفلسفة الغربية، كما أنّه لعب دوراً مهمّاً في تكوين شخصيته الفكرية والعلمية؛ فقبل سفره إلى أوربا (على سبيل المثال) كان إقبال يؤمن بفكرة الوطن الغربية وفلسفة وحدة الوجود، ولكنّه عندما عاد من الغرب بدأ يتخلّى عن وحدة الوجود ويبتعد عن هذه الوطنية ابتعاداً حتّى انقلب ضدّها.

تعتبر السنوات ما بين عام 1908م (حيث رجع من أوربا) إلى عام 1914م، فترة النضج الفكري والفلسفي لدى إقبال؛ ففي عام 1915م نُشرت مجموعته الشعرية الأولى بعنوان "أسرارِ خودى" (أي أسرار الذات وإثباتها)، وفي عام 1918م تمّ طبع مجموعته الشعرية الثانية "رموزِ بے خودى" (أي رموز نفي الذات). ويُعدّ هذان الكتابان مصدرين أساسين لفهم نظريته "الخودي[3]" التي تنبع منها جميع نظرياته الأخرى.

1-2 مؤلّفات العلّامة محمد إقبال:

ومن اللّائق أن أسجّل هنا قائمة لمؤلّفاته الشّعرية والنّثرية باللّغات الثّلاث وهي الفارسية والأردية والإنجليزية حتّى تتكوّن لدى القارئ العربي فكرة واضحة عن الموضوعات الّتي تناولها والّتي تُعتبر مكوّنات مهمّة لفكره:

1-2-1 المؤلّفات الفارسية:

1. "اسرارِ خودى"(أي معرفة الذات وإثباتها وهي مجموعة شعرية) و نُشر أوّل مرة في عام 1915م
2. "رموزِ بے خودى" (أي رموز نفي الذات وهي مجموعة شعرية) و نُشر أوّل مرة في عام 1918م
3. "پيامِ مشرق" (أي رسالة الشرق وهي مجموعة شعرية) و نُشر أوّل مرة في عام 1923م
4. "زبورِ عجم" (أي زبور العجم وهي مجموعة شعرية) و نُشر أوّل مرة في عام 1927م
5. "جاويد نامہ" (أي رسالة الخلود وهي مجموعة شعرية) و نُشر أوّل مرة في عام 1932م
6. "پس چہ بايد كرد أے أقوامِ مشرق " (أي فماذا نصنع الآن يا أمم الشرق؟ وهي مجموعة شعرية) و نُشر أوّل مرة في عام 1936م
7. ارمغانِ حجاز (أي هدية الحجاز وهي مجموعة شعرية. وله مجموعة شعرية أردية أيضاً بنفس العنوان) و نُشر أوّل مرة في عام 1938م

1-2-2 المؤلّفات الأردية:

1. "بانگِ درا" (أي صلصلة الجرس وهي مجموعة شعرية)، و نُشر أوّل مرة في عام 1924م
2. "بالِ جبريل" (أي جناح جبريل وهي مجموعة شعرية)، و نُشر أوّل مرة في عام 1935م
3. "ضربِ كليم" (أي ضرب الكليم وهي مجموعة شعرية)، و نُشر أوّل مرة في عام 1938م

4. "ارمغانِ حجاز" (أي هدية الحجاز وهي مجموعة شعرية)، و نُشر أوّل مرة في عام 1938م
5. "علم الاقتصاد" (وهو مؤلّف بحثي نثري يدرس الاقتصاد كما يقترح العنوان) و نُشر أوّل مرة في عام 1903م

3-2-1 المؤلّفات الإنجليزية (وكلّها بالنثر):

1- The development of Metaphysic in Persia
(أي تطور فلسفة ماوراء الطبيعة في إيران وهو أطروحته الّتي قدّمها إلى جامعة ميونيخ للحصول على شهادة الدكتوراه ، و نُشر أوّل مرة في عام 1908م)

2- The Reconstruction of Religious thought in Islam
(أي تجديد الفكر الديني في الإسلام وهو مجموعة محاضراته التي ألقاها في مدن مختلفة في شبه القارة الهندية-الباكستانية مثل مدراس و حيدرآباد وعلي كره ، و نُشر أوّل مرة في عام 1930م)

3- Stray Reflections
(أي شوارد الفكر وهو مذكّرته الشخصية، و نُشر أوّل مرة في عام 1961م)

2- العوامل الّتي أثّرت في تكوين شخصيته الفكرية:

ثمة عوامل متنوّعة تؤثّر في تكوين أيّ شخصيتة فلسفية وعلمية وفكرية أو ثقافية، وإقبال ليس بدعاً في ذلك أيضاً؛ فقد لعبت عدّة عوامل دورها في إبراز هذا العملاق الشعري على مسرح الأفكار الفلسفية. وأوجز- خوفاً من الإطالة- تلك العوامل في نقاط تالية:

- الدّراسة الدّينية التقليدية في الطفولة
- التعمّق في دراسة القرآن الكريم
- حبّه الشّديد لشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم
- دراسته للتصوف الإسلامي النقدية وتأثره بجزء منه ولا سيّما فكر جلال الدين الرومي (1207م-1273م) الذي يعتبره أستاذاً له ويجعله مرشده في رحلته إلى السماوات التي نظمها في مجموعته الشعرية الفارسية المسمّاة بـ"جاويد نامہ" أي رسالة الخلود.
- التعرّف على حركات إصلاحية في شبه القارة وغيرها مثل حركة السيد أحمد خان التي تماثل حركة محمد عبده الفكرية في مصر وحركة السيد جمال الدين الأفغاني.
- دراسته المتأنية للآداب العالمية مثل الأدب الأردي والأدب الفارسي والأدب الإنجليزي والأدب العربي والأدب الألماني.
- تأمّله الطويل في النُظم الفكرية الغربية الأوربية القديمة والمعاصرة له.
- مكثه في أوربا؛ فقد مكث في أوربا ثلاث سنوات والنصف تقريبًا فيها للدراسة بالإضافة إلى زياراته إلى البلاد الأوربية الأخرى بين الحين والآخر.

3- ميزات العصر الذي عاش فيه:

ومن الأمور المهمة التي تستحق الملاحظة هنا هو أنّ العلّامة محمد إقبال عاش في عصر مشحون باليأس والضعف والانحطاط السائد في العالم الإسلامي عموماً وفي شبه القارة الهندية – الباكستانية على وجه الخصوص؛ فكان الجمود والتعطّل يسيطران على معظم جوانب الحياة، والجبرية كانت تغطّي على الأذهان والعقول

المفكّرة كما أنّ نغمات الفن كانت مشوبة بالتشاؤم والاستسلام[4]. وقد عبّر بشعره الأردي عن هذه الحالة بما يلي (الترجمة العربية):

الكلّ يأوى إلى السجن الذي اصطعنه بيده
سواء أكان أهل الشرق الجامدين أم أهل الغرب النشطين
أكان كهنة الكنيسة أم شيوخ الحرم
لا حرارة في أفكارهم ولا عاطفة في أقوالهم
وزعماء السياسة يرتعون في أساليبهم الملتوية البالية
والشاعر أصيب بإملاق التخيّل
فالحياة تنتظر ذلك المهدي الحقّ الذي
يُحدث بنظرته زلزالاً في عالم الأفكار[5]

4- النظام الفكريّ لدى العلّامة محمد إقبال وله شقّان:

4-1 فكرة "الخودي" لدى إقبال

4-1 عناصر "الخودي"

4- النظام الفكريّ لدى العلّامة محمد إقبال:

الحديث عن موقف العلّامة إقبال تجاه الأدب والفنّ أو الأديب والفنّان ودورهما في المجتمع (أو تجاه أي موضوع آخر) يجرّنا بالضرورة إلى أن نتعرّف على الفكرة المحمورية التي تبنّاها هو للتعبير عن نظامه الفلسفي والفكري وهي نظرية "الخودي".

4- 1فكرة "الخودي" لدى إقبال:

يقول العلّامة إقبال في مقدّمة الطبعة الأولى للمجموعة الشعرية الفارسية بعنوان "أسرارِ خودى" والتي عُرضت فيها فكرته "الخودي" أوّل مرة ، فيقول: "لم أستخدم هذه الكلمة أي "الخودي" في معنى الغرور المتعارف عليه بين الناس، بل إنّني قصدت بها إدراك النفس أو معرفة الذات"، ثم يتساءل قائلاً:" ما الحياة؟ ويردّ على ذلك قائلاً: الحياة هي "الخودي" التي تجتمع فيها العناصر الشخصية والفردية ويخرج منها غيرها، فتصبح "الخودي" مركزاً لحياة الإنسان الذي يحيط بذاته جسماً وروحاً، ولكن فرديته هذه تظلّ ناقصة إذ ابتعد الإنسان عن الله سبحانه وتعالى، فإذا اقترب إليه، اكتملت فرديته أي "خوديه"... "فالخودي" منبع الوحدة و الوجدان والشعور، ومنها يستنير جميع التخيلات والعواطف والآمال الإنسانية، وهذا هو الشيء الغريب الّذي يُجمّع القوات المشتّتة في الإنسان ويضعها في سلسلة منظمة". ويقول إقبال في إحدى محاضراته الّتي جُمعت في كتاب بعنوان: تجديد الفكر الديني في الإسلام، فيقول:

"فليست الغاية النهائية "للخودي" أن ترى شيئا بل إنّ الغاية النهائية أن تصير هي (أي الخودي) نفسها شيئا...وتجد "الخودي" الدليل على حقيقتها في قول كانط:" أنا أقدر" لا في قول ديكارت "أنا أفكر" ... والعالم ليس شيئًا لمجرد الرؤية بحيث يُعرف بالتصورات، وإنّما هو شيء يُبدأ ويُعاد بالعمل المستمرّ"[6].

وضّح إقبال فكرته المحورية هذه في شعره أيضاً، يقول في قصيدة عنوَنها بـ"تخليق" أي الخلق:

(الترجمة العربية لها)

ينمو العالم الجديد بأفكار نضِرة
فلم تُنشأ العوالم بالحجر والطين
إنّ الّذين غاصوا في "الخودي" بعزائمهم
أبدعوا بقطرات من الماء بحوراً متدفّقة
فالّذي يقدر على خلق الحياة السرمدية بكل نَفَسٍ
يغلب على الدّهر ويسيطر عليه
ماتت "الخودي" في أراضي الشرق
فلم يُوجد من يُدرك كُنه الألوهية[7]

4-2 عناصر "الخودي":

في وسعنا هنا أن نذكر أهمّ العناصر التي تتكوّن منها "الخودي" لدى إقبال وهي كما يلي:

4-2-1 الثقة بالنفس، يقول:

"الخودي"، تحوّل الخَردلَةَ إلى جبلٍ
والجبلُ يصير بدونها خردلا[8]

4-2-2 عدم الاستسلام والانقياد، يقول إقبال مخاطبا الشاب المسلم:

شكواك من قسمةِ الله عابثة
مالك! لا تصبح أنت قدر الله؟[9]
وكيف كَلّ مِشرَط بحثك
مالك! لا تُخرّق أكباد النجوم؟[10]

وكان إقبال يرى أنّ الحلّ الوحيد لمشكلة الانحطاط في جوانب الحياة جميعها يكمن في "الخودي"، يقول:

عليك أن تنغمس في "الخودي" أيّها الغافل
فهي سرّ القوة، ولم يبق لإصلاحك إلّا هذا الطريق[11]

ومن أبياته المشهورة والتي تُضرب مثلاً:

ارتقِ بنفسك وارتفع بها إلى السّموّ لدرجة
أن الله يسألك، قبل كل قدر، ماذا يُرضيك؟[12]

4-2-3 الشعور بالحرية الشخصية:

يقول العلّامة إقبال:

إنّ النباتات والجمادات تتقيّد بالقضاء والقدر
أمّا المؤمن، فهو لا يتقيّد إلّا بأوامر الله[13]

وهذا الشعور القويّ بالحريّة يُعلّم إقبال ألّا يقبل الحكم والسلطة على حساب موت "الخودي" يقول:

مَن لا يرغب في الحكم والرئاسة؟ ولكن
ما جدوى الرئاسة التي تميت "الخودي"[14]

وأحياناً يبلغ الإحساس بالحريّة الفردية عند إقبال إلى الحد الأقصى، يقول في أحد أبياته:

لا تصلح هذه الدنيا لعبادك الأحرار ولا تلك (الدنيا)
فهم مقيّدون بالموت هنا ومُجبرون على الحياة هناك[15]

هذا، و"الخودي" لدى إقبال تدعو إلى العمل للخير الإنساني والاجتهاد الفكري والجهد الدائم، وقد اتّخذ إقبال الصقر (ويسميه الشاهين) علامة لفكرة "الخودي"، يقول في إحدى رسائله موضحاً ذلك:

"بعد تفكير عميق اخترتُ هذا الطائر ليمثّل ما أسمّيه "الخودي"؛ ففي الشاهين يتوافر جميع خصائصها مثل:

- استغنائه عن مسكن وعدم اتّخاذه مكاناً يستقر فيه
- طيرانه عاليا
- رغبته عن أكل الميّت وعن أكل ما اصطاده الآخر
- حبّه للبقاء في قمم الجبال

5- موقفه من الفنّ والفنّان والأدب والأديب ودورهما في المجتمع:

5-1 الفنّ للفنّ أم الفنّ للحياة؟

5-2 قضية الجمال في الأدب والفنّ

5-3 الصراع بين الطبيعة والفنّان أو الأديب

5- موقفه من الفنّ والفنّان والأدب والأديب ودورهما في المجتمع:

"فالخودي" هو مركز الدائرة الفكرية عند إقبال وفنّه كما أنّه منبع الوجدان والعاطفة والصحوة الفكرية والعملية. فماذا تتطلّب "الخودي" الفنّ والأدب ومن الفنّان والأديب لدى إقبال؟

5-1 الفنّ للفنّ أم الفنّ للحياة؟

كتب إقبال في حوالي سنة 1917م مقالاً بالإنجليزية بعنوان:

Our prophet's Criticism of Contemporary Arabian Poetry[16] أي "نقد رسولنا الشعر المعاصر له".

واستدلّ فيه بما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال تُلقى ضوءاً على خصائص الفن الجيّد والمفيد للمجتمع. ومن ذلك ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن امرئ القيس بأنّه "أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار"[17]، فيتسائل إقبال عن سبب هذا الرأي وكنهه، ثم يجيب مناقشاً: "إذا أمعنّا النظر في شعر امرئ القيس وجدناه يُنشئ فينا الطرب واللذة ،ولكنّه يسلب منّا الوعي ويسيطر بسحره على التخيّل، فلا يحضّنا على العمل والجهد ولا يزيد فينا معرفة الذات أي "الخودي" ثم يقول:

"يمكن أن نستنبط من هذا القول أساساً مهمًّا من أسس الفنون الجميلة وهو أنّه ليس من الضروري أن تكون محاسن الفنّ ومحاسن الحياة موحّدة؛ فويلٌ للشعر الذي يُميت قلوبنا ويدعونا إلى الانحطاط مهما ارتفعت محاسنه الفنية". ومما استدلّ به إقبال في مقاله هذا، ما يُروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أُنشد بين يديه بيت عنترة وهو:

ولقد أَبَيت على الطَّوى وأظلّه حتى أنالَ به كريم المأكل[18]

فقال النبي صلى الله عليه وسلم:"ما وُصف لي أعرابي قطّ، فأحببت أن أراه إلا عنترة."

يتعمّق إقبال هنا في البحث عن أسباب هذا المدح، ويستخلص من مناقشته النقدية والفكرية إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطانا أساساً ثانياً من أسس الفنون وهو أن الفنّ ينبغي أن يتبع الحياة ويخدمها وليس العكس، بل وكلّ ما خلقه الله من مواهب وملكات يجب أن تُستغل للحياة.

يتّضح مما سبق أنّ إقبال يؤيد نظرية الفن للحياة فهو يرى "أن الفن أي الأدب والتصوير والموسيقى والعمارة وغيرها من الفنون يجب أن يساعد كلّ منها الحياة، وعلى هذا ينبغي أن أسمّي الفن خلقا وليس تمتعا. وعلى شعراء هذا البلد (وهو يخاطب أدباء

أفغانستان) أن يُخلصوا في توجيه الشباب ويُبرزوا عظمة الحياة وجلالها بدلاً من إبراز الموت واليأس؛ فالفنّ إذا مال إلى إظهار الموت ودإخال اليأس في القلوب يصير مدمّراً، والجمال الذي يخلو من الجلال والقوّة يُميت الناس".[19]

وفي خطبة ألقاها للشباب ينتقد نظرية الفنّ للفنّ قائلاً:

"ومن الأشياء التي تعكّر أخلاق الأمم وتُفسدها نظريةٌ تُعرف بالفنّ للفنّ، ويُراد بها أن يقاس الجمال في الفنون على معايير فنية خالصة دون مراعاة الأخلاق والروح. وهذه النظرية تشيع في الغرب في هذه الأيام، فإذا استمّر شيوعها بهذه السرعة فإنها ستهدمها، وقد قاومتُ هذه النظرية في شعري مقاومة شديدة، وأحذّر الشباب منها أيضاً،؛فالفنّ إذا ابتعد عن الأخلاق والحياة فإنّه يُفسدها ... ولكن إذا اتّخذتم فنّا من الفنون الجميلة لتحقيق الأهداف السامية، فإنّه يبعث الحيوية والروح في الأمة وإلّا فهو سمٌ قاتل".[20]

ويقول متحدثاً عن أهدافه في قول الشعر:

" لم أجعل هدفي قط في قول الشعر الأدب للأدب ... وإنما هدفي هو إثارة التفكير لا غير، وأنا أحاول قدر استطاعتي، أن أعبّر عن الأفكار التي أراها مجدية؛ فإن لم تعتبرني الأجيال القادمة شاعراً، فلا عجب في ذلك".[21] ويُضيف قائلاً: "أرى من اللازم أن تخضع الفنون للغاية العظمى لحياة الإنسان، وأما الفنون والعلوم التي تخدّر عقولنا وتُغفلنا عما حولنا من حقائق الحياة وأصولها فإنّها مدمّرة. والفن الحقيقي هو الذي يزيد فينا صحوتنا ومعرفتنا عن الحياة ويقوّي إرادتنا لمواجهة مشكلاتها".[22] ويرى إقبال أنّ الفنون الإسلامية مازالت في انتظار ظهورها الحقيقي، يقول:

"إذا نظرنا في تاريخ الثقافة الإسلامية، وجدنا أنّ الفنون الجميلة الإسلامية ، في رأي، - ماعدا العمارة - أي الموسيقى والتصوير بل والشعر إلى حد كبير لم تظهر و لم تُولد بعد"[23]. هذا وقد عبّر إقبال عن موقفه إزاء الفن في شعره أيضاً قائلاً:

إن تحمي (الفنون) "الخودي" فإنّها الحياة عينها
وإن تُخفق في ذلك، فهي سحر وأساطير
حين استغنى الأدب والدين عن "الخودي"
ارتدّت الأمم إلى أسفل السافلين[24]
فويل للرسم والشعر، وويح للغناء والنشيد[25]
ولا شكّ أنّ القلب يُسرُّ بإيقاع المغنيّ ولحنه
ولكن ما فائدة السرور إذا مات القلب[26]

وفي قصيدته بعنوان "إبليس كي مجلس شورى" (أي برلمان إبليس) يقول إبليس مخاطباً مستشاريه: "ليُشغَل المسلم بالشعر والتصوّف اللّذين يُخبآن عن عينيه ما يجري في واقع الحياة"[27]. فالفنّ الذي يجرّ الناس إلى التعطّل عن العمل، والتدهور في الأذواق والفكر، ويجعلهم يفرّون عن مواجهة الحياة العملية، حيث تقلّ فيهم قوة المقاومة وتزداد فيهم النزعة إلى الاستسلام والانقياد، فإنّ هذا النوع من الفنّ والذي سمّاه "الفنّ الميت" يسلب التمييز بين الجميل والقبيح وبين الحق والباطل وبالتالي يتسرّب ضعفٌ وانحطاطٌ إلى قلوب الناس وعقولهم، ثم يتسرب ميلٌ إلى الجمود ورغبةٌ عن الكفاح. ولكنّ

الفنّ الصالح يُنقذ الإنسان من الخوف والحزن ويُعطيه الشعور بحريّته وشرفه أوبألفاظ آخرى "بخوديه".

وكان إقبال يعتبر هذا النوع من الفنّ أفضل من العلم والفلسفة يقول: "للعلم والفلسفة والدّين حدودٌ ولكن الفنّ ليست له حدود"[28]. ولذلك نراه يفضّل الشاعر على الفيلسوف يقول: "إنّ الفلسفة تُشيخ الناس والشعر يجدّد الشباب فيهم[29]، ويقول أيضاً: "إنّ الفلسفة مجموعةٌ من الأفكار المجرّدة تقشعرّ في اللّيل البارد داخل أعماق العقل الإنساني، فيأتي الشاعر ويسخّنها ثم يُخرجها إلى الواقع".[30]

والشعر فوق ذلك ألطفُ الفنون الجميلة كلّها وأفيدها للحياة[31] في نظر إقبال، ولا سيّما الشعر الذي يعمل فيه الشاعر لمصلحة الإنسان ويحاول الارتقاء بأمّته ومجتمعه ويبثّ فيهما التفاؤل مع الحياة. ولكن هذا لا يعني في أية حال من الأحوال أنّ إقبال كان يُريد أن يحوّل الشعر إلى مجموعة من النصائح والمواعظ الخالية من العاطفة والعارية من الحرارة وما شابه ذلك من مكوّنات الفن، يقول في مذكرته الشخصية التي عَنونَها بـ: Stay Reflections (أي شوارد الفكر):

"من العبث أن يُبحث عن الحقيقة المنطقية في الشعر؛ فالخيال يجري وراء الجمال وليس وراء الحقيقة، ولذلك لا تحاول أن تستدلّ على عظمة الشاعر بقطعات من شعره تراها منجسمةً مع الحقيقة العلمية[32]. ولعلّ قوله الآتي يوضّح رأيه توضيحاً أكثر بهذا الصدد، يقول :"إنّ الفنّ كذب مقدّس".[33]

5-2 قضية الجمال في الأدب والفنّ:

ومن المناقشات الدائرة في مجال الفن والفلسفة - على مرّ العصور مناقشة "قضية الجمال" ، وهل هو شيء قائم بذاته أو شيء خارجي يتّصل بعين الناظر وقلبه وتذوّقه، أو أن الجمال ينشأ من الاتصال بهذين الجانبين الخارجي والداخلي وما إلى ذلك من أسئلة تتفرع منها أسئلة أخرى تمسّ حدود ما وراء الطبيعة. فمال إقبال في مراحله الأولى من حياته الفكرية إلى النظرية التي تقول إنّ الجمال شيء قائم بذاته، يقول معبّرا عن ذلك:

(ها هو الجمال) الذي رأته عيون الفلكيين في الشمس والقمر والكواكب
والذي وجده الصوفي في ظلمات القلب
وشاهده الشاعر في الطبيعة
والذي يتلألأ في لآلي الندي
وتتدفّق رائحته من جبّة الأزهار
والذي عمّر الصحراء بسكوته
ويبثّ الروح في أنفاس الحياة
كل شيء يجلو فيه جماله ولكن
عيونك يا سُليمى آية "الكماله"[34]

وواضح من الأبيات المذكورة أنّه كان متأثراً بنظرية وحدة الوجود . ولكنّه تخلّى عن هذه النظرية فيما بعد، لأنّه وجدها تؤدّي إلى اليأس والتعطّل عن النّضال، فلجأ إلى الفلسفات الغربية فزاد إقبالنا يأسًا لدرجة أنّه صمّم على عدم قرض الشعر وقال إنّه شُغل الأمم الميّتة ،ولكنّه بعد هذا كلّه رجع إلى الاعتدال وتمكّن من التوازن وقال إنّ الجمال ينشأ من الموضوعية والذاتية معاً أو من الاتصال بينهما، يقول في بيت شعر له:

الجمال مرآة الحق والقلب مرآة الجمال

فجمال كلامك مرآة لقلب الإنسان[35]

5-3 الصراع بين الطبيعة والفنّان أو الأديب:

من النظريات المعروفة في آفاق الفن ومتعلقاته أنّ الفنّ يُوجد في الطبيعة قبل أن يُبدع، فيأتي الفنّان ويُزيح رداءها عنه فيظهر الفنّ. ودور الفنّان يقتصر في الاتيان به إلى الخارج، وصاحبنا يُخالف هذه النظرية و يقول:

"إنّ الكون الذي نعيش فيه، والطبيعة التي نتعامل معها لها أسرار باطنية تمنع الطبيعة مَن يحاول الكشف عنها أو الوصول إليها، ودور الفنّان ليس قاصراً على إزالة الغطاء وإنّما يغوص في مغامرة تقوم ضده الطبيعة". فالإبداع الفني في رأي إقبال يتمّ بعد صراع طويل مجهد بين الطبيعة والفنّان حيث تتشكل "تصورات" و "تخيلات" في ذهنه وتتّضح عناصرها، وهناك تبدأ محاولته لإخراجها إلى الناس، وهنا يدخل المبدع في عراك غير يسير مع الطبيعة التي هي الأخرى تقف في طريق ذلك. وهنا يُلحّ إقبال على الفنّان أن لا يكتفي بمحاكاة ما يوجد في الطبيعة بل يبذل جهوده لما يجب أن يكون، وهذا لا يتمّ إلا بالإخلاص والصدق والجهد المستمر ويسمّيه إقبال في أحد أبياته "دم الكبد" يقول:

جميع النقوش ناقصة إذا لم يصاحبها دم الكبد والغناء بدونه غير ممتع.

والموهبة هي أساس الإبداع الفني عند إقبال ولكن هذا الكنز يبقى مختبئا في القلب إذا لم يزاوله صاحبه ويمارسه ممارسة دائمة تمكّنه من الظهور إلى الخارج بقوالب تعبيرية مكتسبة يقول:

لا شكّ أنّ الأفكار والتخيّلات هبةٌ من الله

ولكن الفنّان مجبَر على العمل والجهد الدائمين

6- النتائج:

وبعد هذه الجولة لرحاب شعر إقبال ونثره حول الفنّ والأدب والفنّان والأديب ودورهما في المجتمع، يمكننا أن نستخلص إلى نتائج وأهمّها ما يلي:

1- الحياة والذات -أي "الخودي"- في الترتيب الأولوي أهمّ وأكثر ثمنًا من الفنّ والأدب والنشاطات البشرية الأخرى.
2- "الخودي" هي التي تجتمع فيها العناصر الشخصية والفردية وتصبح مركزاً لحياة الإنسان الذي يحيط بذاته جسماً وروحاً الّذي يُجمّع القوات المشتّتة في الإنسان ويضعها في سلسلة منظمة، كما أنّها منبع الوحدة والوجدان والشعور الذي يستنير منه جميع التخيلات والعواطف والآمال الإنسانية.
3- الثقة بالنفس وعدم الاستسلام والشعور بالحرية الشخصية من أهمّ عناصر " الخودي".
4- يجب أن يُنظر إلى الحياة ومهامها ومشاكلها بمنظور جمال "الخودي" وجلالها.
5- علاقة الإنسان والفنّان والأديب بالكون علاقة ثنائية وطيدة بحيث يستمرّ الإنسان بوصفه أديبًا وفنّانًا في تسخير الكون وتجميله. وأمّا قوّات الكون، فهي تحاول أن تسدّ طريقه. ويرى إقبال أنّ الفنّان والأديب يستمرّان في الكفاح والنضال مع هذه القوّات معتمدين في ذلك على العمل والإبداع المستمرين.
6- هدف الفنّ والأدب وبالتالي دور الأديب والفنّان في المجتمع البشري هو ملؤ الحياة بالنور والجمال، وحثّ الفرد والمجتمع على العمل والاجتهاد الدائمين، والارتقاء بهما إلى الأفضل و الأعلى

7- ينبغي أن تتّبع الفنون والآداب الحياة وتسعى إلى إبراز "الخودي" وتقويّتها حتى تؤدّي هذه الفنون والآدب دورهما الفعّال البنّاء في المجتمعات البشرية.
8- ليس من الضروري أن تكون محاسن الفنّ ومحاسن الحياة موحّدة؛ فويلٌ للفنّ والأدب الّذي، رغم أنّه يُنشئ فينا الطرب واللّذة، غير أنّه يسلب منّا الوعي و يُميت قلوبنا ويدعونا إلى الانحطاط.
9- ينبغي للفنّ بصوره المختلفة- مثل الأدب والتصوير والموسيقى والعمارة وغيرها من الفنون- أن يتبع الحياة ويخدمها وليس العكس، بل يجب أن تُستغل جميع المواهب والملكات الإنسانية لخدمة الحياة، ولذلك يرى إقبال أنّ الفن خلقٌ وليس تمتعًا.
10- يعتبر إقبال هذا النوع من الفنّ أفضل من العلم والفلسفة بحيث لايوجد له حدود، ويرى إقبالنا أنّ الفلسفة مجموعةٌ من الأفكار المجرّدة تقشعرّ في اللّيل البارد داخل أعماق العقل الإنساني التي تُشيخ الناس وأمّا الشعر، فهو يجدّد الشباب فيهم.

الهوامش

1 تقع مدينة سيالكوت في جنوب شرقي إقليم بنجاب التابع لباكستان وهي مدينة تتميز بوجود مصانع كرة القدم حيث تعتبر أكبر مدينة في العالم في صناعة كرة القدم.

2 كان السير السيد أحمد خان (1817م-1898م) من مفكّري شبه القارة الهندية – الباكستانية الذي عاش خلال احتلال الإنجليز لهذه المنطقة، وقد دعا أهل شبه القارة عموما ومسلميها خصوصا إلى التمكن من العلوم والمناهج العلمية الحديثة واللغة الإنجليزية. وله مؤلفات عديدة تعالج قضايا ثقافية وسياسية ودينية، ويرجع الفضل إليه في تأسيس أوّل مدرسة (ثم جامعة) للمسلمين في هذه المنطقة التي عرفت فيما بعد بجامعة على كره. (أُنظر للتفصيل: حياتِ جاويد ، لمولانا ألطاف حسين حالي، الجزء الأول، ارسلان بكس، شارع علامة إقبال، كشمير الحرّة، باكستان).

3 سألتزم بهذه الكلمة أي "الخودي" (ومعناها معرفة الذات وإثباتها) في المقال كلّه لدلالتها التي تلتفّ حولها والتي تنبعث من كلام إقبال شعرا ونثراً ، ولأنّ أي محاولة لترجمتها العربية أو إلى أية لغة لاتفي بغرض دلالي عميق قصده شاعرنا.

4 راجع سيرته التي ألّفها ابنه الدكتور جاويد إقبال ونشرها في أربعة أجزاء بعنوان: زنده رود (وقد تُرجم إلى العربية أيضا بعنوان: "النهر الخالد") إقبال أكادمي، لاهور باكستان 1979م. وقد ركّز المؤلف في هذا الكتاب على نشأة العلّامة إقبال الفكرية وتطوره العقلي والفلسفي في مراحل حياته المختلفة محلّلا في ذلك العوامل الثقافية والعلمية والفكرية (شرقية كانت أو غيربية، إسلامية كانت أو غيرها) التي أثّرت في شخصيته بطريقة أو بأخرى.

5 ضرب كليم ص: 44، كليات إقبال أردو، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، 1979م

6 Is Religion Possible PP. 197 – 198 in: The Reconstructions of Religious Thought. SH. M. Ashraf. Lahore. 1982.

7 ضرب كليم، ص: 100 – 101، كليات إقبال أردو

8 بال جبريل ص: 53، كليات إقبال أردو

9 أرمغان حجاز ص: 32، كليات إقبال أردو

10 أرمغان حجاز ص: 27، كليات إقبال أردو

11 بال جبريل ص: 42، كليات إقبال أردو
12 المرجع السابق ص: 55
13 ضرب كليم ص: 64، كليات إقبال أردو
14 بال جبريل ص: 42، كليات إقبال أردو
15 المرجع السابق ص: 14
16 Stray Reflection, A Note - Book of Iqbal PP. 145 – 148. Iqbal Academy Lahoreنشر هذا المقال أول مرة في مجلّة: New Era لكنو الهند، 28 يوليو 1917م
17 ورد هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل كما يلي:
"امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار" 228 ج: 2 دار صادر بيروت بدون تاريخ الطبع.
18 ديوان عنترة، شرح كرم بستان ص: 57، دار صادر، بيروت، 1858م.
19 مجلة إقباليات ، يوليو 1990م– يناير – 1991م، ص: 215 – 216، إقبال أكادمي لاهور باكستان.
20 المرجع السابق ص: 209
21 إقبال نامه، مرتبه شيخ عطاء الله ص: 108، ج:2، شيخ محمد أشرف، بدون تاريخ الطبع.
22 المرجع السابق
23 ديباجه مرقع جغتائي در مضامين إقبال مرتبه، تصدق حسين ص: 200، حيدر آباد الهند 1362ه
24 ضرب كليم ص:100، كليات إقبال أردو
25 المرجع السابق ص: 114
26 المرجع السابق ص:125
27 أرمغان حجاز ص: 14، كليات إقبال أردو
28 Stay Reflections P.131
29 المرجع السابق ص: 122
30 المرجع السابق ص: 58
31 اقبال سب کے لیئے، فرمان فتحبوري ص: 213 – أردو أكادمي كراتشي باكستان، 1978م
32 Stay Reflections P.34
33 المرجع السابق ص: 25
34 - بانگِ درا ص: 21، كليات إقبال أردو
35 المرجع السابق ص: 283.